
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

المصباحية : العدد 7 . 2007 - سلسلة العلوم الإنسانية - الصفحات : 39 - 58

من أنواع التسلية واللعب عند الامة والفقراء في المغرب خلال العصر الحديث

محمد استيتو

كلية الآداب وجدة

تُعتبر التسلية –كظاهرة سُسيو–ثقافية وحضارية– قديمة جدا، لكن يبدو أن الوعي بفوائدها وأهميتها وتأثيرها الإيجابي في النفس والبدن إنما بدأ في التبلْوُر في مراحل بلوغ بعض المجتمعات مستويات معيّنة من التطور الاقتصادي والاجتماعي، والتي ترتب عنها توسُّع مهم في تقسيم العمل بين الأفراد والجماعات، وغلبت فيها ظاهرة الاحتراف وطول مُدد السعي وراء الكسب مقابل تراجع فترات الراحة والفراغ.

وتتعدد مظاهر التسلية بحسب الظروف البيئية والطبيعية وأنماط العيش ومستوى التظيم السُّسيو–اقتصادي ودرجة تطوُّره، لذلك نرصد في التاريخ مستويات كثيرة من أنواعها، عند البدو أو عند الحضر أو عند غيرهم، بعضها "بدائي" بسيط، وبعضها الآخر أرقى. وتتدرّج هذه الأنواع أو تتراوح بين النقْر، لضبط الإيقاع، والدندنة والهنْهنة، والحكي والسرد، أو تتعدد ضمن ضوابط ألعاب القوى المبنية على معايير: الأقوى والأسرع والأعلى والأدق، كالنّطّ والقفز، والركض والعدْو، وسباق الجياد والنوق، والرمي والتسديد، والمسايفة والمبارزة والمصارعة، ناهيك عن الألعاب الذهنية وأشكال التعبير الجسدية المتنوعة، وعُروض المسارح، وغير ذلك من الأنواع التي ابتكرتها وأنتجتها الفئات الجنسية والعُمرية والطبقات المختلفة على مر العصور، بل ولم تزل تبتكرها إلى أن جعلت منها، اليوم، نوادٍ وشركات ومؤسسات متخصصة صناعةً مربحة.

ونقف في مصادر تاريخ المغرب، في العصر الحديث خاصة، على جملة من أنواع التسلية، لاسيما تلك التي اشتهرت بين أبناء العامة وفئات الفقراء، نظرا لحاجتهم إليها لفوائدها الكثيرة في الترويح على النفس والذات من أعباء اللهث وراء القوت اليومي وهموم الحياة، وإن

كنا نسجل أن الحاجة إلى التسلي لم تكن دائما، عند البعض على الأقل، طلبا للترويح على النفس من تعب الجري وراء الرزق، بل كانت، أحيانا، فرارا من ضغط البطالة والفراغ.

وعلى أي فإن أنواع التسلية تلك كانت كثيرة وسنحاول أن نعرض لبعضها هنا عند فئات مختلفة، ولاسيما ما كان منها خارج مناسبات الأفراح والأعياد.

1- التسلية عند النساء

تبدو الحياة اليومية العادية أيام الأسبوع بطيئة ورتيبة ومثقلة بعادات وضوابط تجعلها أكثر رتابة وبُطءا، لاسيما في أوساط النساء ممّن كُن متقيّدات في كل يوم بفعل مخصوص لا يكون في غيره، معتقدات أن مخالفة ذلك جهل ومبعث شؤم، إن صح ما ورد في هذا الشأن[1].

ويُعد الاجتماع من أجل الثرثرة واللغو أكثر أنواع التسلية قدما وانتشارا بين النساء خاصة، لأنه لا يحتاج إلى ترتيبات، إذ يكفي أن يجتمع عدد من النساء في إطار زيارة عائلية أو مجاملة، أو أن تدعو إحداهن جارتها لتعمل لها الحنّاء[2] مثلا ليُفتح حديث أو أحاديث قد لا تُغلق.

[1] - كان النساء، في بعض الجهات، يعتقدن أنه لا يجوز شراء السمك يوم السبت ولا يُدخلنه بيوتهن ولا يأكلنه، ولا يشترين فيه الصابون ولا يغسلن فيه الثياب ولا يذهبن فيه إلى الحمّام، وكن لا يعملن في ليلة الأحد ولا يومه مشغلا، وأما يوم الاثنين والثلاثاء فمباح لهن فيه جمع ما يختزنه، ويوم الأربعاء لا يشترين فيه اللبن ولا يُدخلنه بيوتهن، ويوم الخميس الاشتغال والحوائج، ويوم الجمعة لا يعملن فيه شيئا من غزل كتان ونحوه. ومن ذلك أيضا منعهن خروج النار وأشياء من ماعون البيت عشية كل يوم ويبالغن في منع ذلك حتى إن من كانت منهن تتعشى في ضوء السراج ثم جاء أحد يسرج منه لا يتركنه يفعل، فإن اضطر أذن له بشرط أن يسرجه ثم يُطفئه، يفعل ذلك ثلاثا قبل أن يذهب به ويوقده في الرابعة، وحينئذ يذهب به. أحمد ابن عرضون، مقنع المحتاج في آداب الأزواج. مخطوط (مخ)، الخزانة العامة (خ. ع.)، الرباط، عدد ك 1026، ص. 51 وصص. 291-292.

[2] - إبراهيم بن هلال السجلماسي، الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير. طبعة حجرية (ط. ح.)، فاس 1303 هـ، ملزمة 12، ص. 6.

ويظهر أن الأحاديث كانت تدُور في جو من اللغط واللغو، وأن تلك اللقاءات كانت في الغالب حلقات للغيبة وللنميمة[3]، ومناسبة، أحيانا، للتخلص من رقابة المجتمع لإشباع رغبة غير محمودة كشُرب الدخّان[4] والحشيش[5]. لذا لا نستغرب من أن الزاهدة رُقية مَعْن (ت.1087/1677) كانت "إذا حضرت مع النساء مجلسا لا يقدْرن أن يخُضن في لغو من الكلام."[6] ولا نستغرب من أن نقف على حالات مثل "من حلف لزوْجته بما يحلف به الرجال لا تدخلين الدار الفلانية تُجمِّعين فيها مع النساء... وقصدُه مجانبة الجماعة المذكورة."[7]

وإذا كانت زيارة المقابر فرصة للتذكُّر والاعتبار والترحُّم على الموتى، فقد كان من بين النساء من كنّ يخرجن إليها للترويح عن النفس في حالة الضجر، لاسيما إذا كان بالمقبرة رابطة أو زاوية أو ضريح، لأنها تشكل ملتقى للزائرات[8]. ويبدو أن نساء كثيرات كن يترددن على

---

3 - تعتبر الغيبة والنميمة، في الواقع، ظاهرة اجتماعية معروفة بين النساء والرجال سواء، وقد ورد، مثلا، "أن الولي العالم سيدي عبد الله بن حمد دفين مكناس ذهب للحج في جماعة من أصحابه التزموا التزاما يأخذونه ممن يغتاب أحدا من المسلمين فجمعوا من ذلك مالا وافرا فتحيّروا فيه فلما اجتازوا تونس سألوا الإمام ابن عرفة عن ذلك فأفتاهم بجواز أكله." محمد الصغير اليفراني، صفوة من انتشر من أهل القرن الحادي عشر. ط. ح.، فاس، دون تاريخ، ص. 123.

4 - سئل السكتاني "عمن وجد زوْجته تشرب تبغ فاغتاظ من ذلك وبلغ به الحال إلى أن قال لها عليه الحرام إن وجدتك تشربها بعد اليوم مدة عُمرك لا تكونين لي زوجة فبعد أيام وجدها تشربها." الأجوبة الفقهية لأبي مهدي عيسى بن عبد الرحمان المراكشي السكتاني. مخ.، خ. ع.، عدد د 1016، ص. 92. يبدو من هذه النازلة أن الزوج ضبط زوْجه تشرب الدخان في داره، لكن كيف بدأت تتعاطى لشرب الدخان، وأين، ومع من، ومنذ متى إلى أن أصبحت مدمنة؟ ثم من كان يمدُّها بهذه المادة؟

5 - راجع: أبو القاسم بن محمد الغساني، حديقة الأزهار في ماهية الأعشاب والعقّار. تحقيق: محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، مادة "شهدانج"، أي القنّب، التي يعرف ورقها بالحشيش. صص. 336-337.

6 - محمد ابن عيشون الشرّاط، الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس. دراسة وتحقيق: زهراء النظّام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1997، ص. 145.

7 - السكتاني، م. س.، ص. 88.

8 - راجع: عصمت دندش، "من مظاهر الحياة الاجتماعية بالأندلس: "طقوس الجنائز". مجلة كلية الآداب بالرباط، عدد 19، 1994، صص. 119 وما بعدها.

هذه المقابر، سواء بينَ الحين والحين[9] أو حتى في المواسم والأعياد، وهن في أبْهـى زينتـهن، "ويختلطن بالأجانب على القبور وفي الطرق، ويستمتع بعضهم من بعـض بـالنظر والكـلام والبسط"[10]، إذ كان بعض الشباب يستغل أيام زيارة المقابر للتربص بالزائرات، بل إن منهم من كان يعترض سُبلهن حتى على الطرقات المؤدية إلى تلك المقابر[11]. وتسجل بعض المصادر أن المرأة الزائرة قد يكون معها أحيانا زوْجها، ومع ذلك "يقع استمتاع الأجانب منـها بـالمزاح والبسط والملاعبة معها واللمس لها بحُضوره ويسكت ويرى أن هذا من حُسن الخُلق والبشاشة والسّتْر والسياسة على نفسه وعلى عرض زوْجته وعلى عرض من فعل ذالك بزوْجته."[12]

وتُشكّل زيارة الأضرحة والمزارات في أيام مخصوصة، توافق، غالبـا، يـوم وفـات أصحابها[13]، ملتقى للنساء، يقصدنها للاستشفاء أو لقضاء حاجة أو لمجرد الزيارة و"قتل الوقت" بتبادل الأخبار والخوض في أي حديث[14]. ويظهر أن أحاديثهن كانت تدور، في أحيان كثيرة،

[9] – يتأكد شيوع هذه الظاهرة من خلال كثرة الأسئلة الواردة في هذا الشأن، مثل سؤال "بعض الفقهاء عن المرأة هل يجوز لها زيارة الصالحين والخروج إلى ذلك أم لا"؟ وكثيرا ما كانت المقابر تُتخذ مكانا للجلوس ولتجاذب أطراف الحديث، كما في سؤال "عن الجلوس على المقابر هل هو محرم مأثوم أم مكروه..." عبد العزيز الزياتي، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة. مخ.، خ. ع.، عدد د 1698، انظر على التوالي: ص. 19، وص. 7.

[10] – محمد أكبيل السوسي، تنبيه الإخوان على ترك البدع والعصيان. تحقيق: محمد استيتو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجـدة، مطبعة شمس، وجدة 2001، صص. 80-81.

[11] – عصمت دندش: م. س.، ص. 120.

[12] – أكبيل، م. س.، ص. 81.

[13] – محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس. 3 أجزاء، ط. ح.، فاس 1316 هـ، 1: 64-65. وقد كانت زيارة قبر أبي جيدة يوم الأربعاء (م. ن.، 3: 94-95)، وكانت زيارة قبر درّاس بن إسماعيل يوم الخميس (سلوة، م. س.، 2: 178-179)، وزيارة امبارك بن عبابو يوم السبت (م. ن.، 3: 142) وكذلك مولاي يعقوب (م. ن.، 3: 216) وسيدي ابـن حـرزهم (حرازم) (م. ن.، 3: 91)...

[14] – تُرجع بعض المصادر المغربية بداية ظهور زيارة القبور إلى ما رُوي من أن أبا محمد بن زيد القيرواني لّما قدم فاسا لزيارة درّاس بن إسماعيل، فوجده قد توفي (عام 357/967-68) في ذلك اليوم فحضر جنازته وأقام بقبره ثلاثة أيام، وكان ذلك سبب زيارة القبور بفاس تلك الأيام إلى

حوْل قضايا شخصية وعائلية خاصة، مثل كيفية استجلاب حُبّ الأزواج وكسب طاعتهم، وقد كانت هناك –ولا تزال– أضرحة تُقصد لأجل ذلك كضريح أبي جِيدة بفاس[15]. وقد تعني هذه الظاهرة قلة اطمئنان نساء كثيرات على علاقتهن بأزواجهن، إما بفعل أسباب اقتصادية أو اجتماعية أو غير ذلك من الأسباب.

ويُستفاد من بعض الوقائع أنه كانت تمارس في بعض هذه الأضرحة، أحيانا، عادات قبيحة، مما كان يدفع بالقيِّمين عليها إلى إغلاقها في وجه الزائرات، كما هو الحال بالنسبة لضريح سيدي فاتح، الكائن بعرصة للاّ مينة المرينية بفاس، الذي كان مزارا مشهورا، يأتي النساء لزيارته أفواجا في يوم خاص، فمُنعن من ذلك[16].

ويُمكن القول إن زيارة القبور والأضرحة لم تكن بالنسبة لبعض النساء إلا وسيلة يتحجَّجن بها للخروج من البيت لقضاء فسحة من الوقت في محادثة الأجنبيات أو الأجانب مع ما قد يترتب عن ذلك، أحيانا، من الوقوع في المحظور، حتى إنه كانت تحدُث بسبب ذلك خلافات بين الأزواج لإصرار بعض النساء على زيارة المقابر واعتراض الأزواج على ذلك، وكثيرا ما كان العناد والتعنت يُفضيان إلى الطلاق، تماما كما كان يحدث في المجتمع الأندلسي[17].

الآن. (سلوة، م. س.، 2: 178.) أما الدراسات الحديثة فتربط جذور هذه الظاهرة بوجود الوثنية ثم بالديانة اليهودية فالمسيحية في العصور السابقة عن دخول الإسلام إلى المغرب. راجع:

L. VOINOT; *Pèlerinages Judéo-musulmans du Maroc*. I. H. E. M., Notes et documents. Larose, Paris 1948, pp. 100-108.

15 – مثل ضريح أبي جيدة بفاس. راجع: أحمد ابن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. جزآن، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، دار المنصور للطباعة، الرباط 1973 و1974، 1: 13 والإحالة رقم 10، و1: 107 والإحالة رقم 131.

16 – مشهورا ومزارا، وكان النساء يأتين لزيارته أفواجا في يوم خاص، فمُنعن من ذلك. سلوة، م. س.، 3: 234.

17 – عصمت دندش: م. س.، صص. 120 وما بعدها.

و لم يكن اجتماع النساء مناسبة للثرثرة فقط ووضع الأيدي في الحزام أو على الخدود، بل كان الحديث يُصحب عادة بإنجاز أعمال لفائدة البيت أو للبيع للرفع من دخل الأسْرة، كنشف الصوف ومشطها وغزلها، أو تنقية الحبوب والقطاني، لذلك تواتر المثل الشعبي القائل: "حْديثْ، ومغزلْ".

وكان الخروج إلى الحمّامات العمومية يمثل أيضا مناسبة للتسلية بالنسبة للنساء وللرجال[18] وللمحجّبات خاصة، لأن الحمّام بالنسبة لهن كان يشكّل بوّابة على محيطهن الخارجي. وقد بيَّنت إحدى الدراسات[19] أن الحمّامات كانت تُستغل من قبَل بعض النساء أو بعض الرجال لُمعاشرة المثيل، فكانت تساعد بذلك على انتشار ظاهرة السحاق واللواط وتفشي الشذوذ الجنسي.

[18] - يذكر الوزان أنه كان من عادة النساء والرجال أيضا، بفاس، أن يأكلوا في الحمامات ويتسلوا فيها غالبا بمختلف ضروب التسلية، ويغنوا بأعلى أصواقم... الحسن الوزّان، وصف إفريقيا. جزآن، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجّي ومحمد الأخضر، ط. 1، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط 1980 و1982، 1: 181.

[19] -Emile MAUCHAMP; *La sorcellerie au Maroc*. éd. Dordon, Paris, pp. 168-169.

ويؤكد ذلك أيضا ما ورد في مصادر كثيرة من أن معظم الناس والشبان من العامة والفقراء كانوا يدخلون الحمّامات "عراة دون أن يستحي بعضهم من بعض." الوزان: م. س.، 1: 181، وسلوة، م. س.، 2 : 193. وفي سنة 1048/1639 عمل المحتسب الحاج صالح (ت. 1059/1649) على إلزام الناس بالستر في الحمامات بفاس. صفوة، م. س.، ص. 83، ومحمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. 4 أجزاء، تحقيق: محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط 1977، 1982، 1986، 1: 376.

ومن الحمّامات التي اشتهرت بالفحش، حمّام بناه أحدهم بمكناسة الزيتون، في العصر الموحدي، يسمى الفنش، وفيه قال أحد الخطباء بعد خرابه:

هُنـاك حمّـام بنـاه الفنْـش — وهو الذي قد كان فيه الفحْـش
مـن الرجـال ومن النسْـوان — بكشْـف أعضاء لهم حِسـان
لأجـل هـذا شابـه الخـراب — فلـم يكـن بعْـده بـه طيّاب...

راجع: محمد ابن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون. مطبعة أمنية، الرباط 1952، صص. 10-11.

وأما داخل الدُّور فقد كان النساء يتسلين بأمور كثيرة ومن ذلك عناية بعضهن بغراسة نباتات وأعشاب طبية في "أحباق" فوق السطوح[20]. والراجح أن النساء والشابات خاصة هن اللواتي كن كذلك يكلّفن بتربية الطيور في أقفاص فوق السطوح كذلك كالدجاج والحمَام[21]...

كانت هذه بعض مظاهر ملء الفراغ والتسلية عند النساء، فما تكون أنواع التسلية الخاصة بالرجال؟

2- التّسلية عند الرجال

سجّل الوزّان (ق. 16/10) أنه لا يوجد بين الناس المهذّبين من ذوي البيئات الحسنة من أنواع اللعب غير لعبة واحدة هي لعبة الشطرنج، تبعا لعادة أسلافهم[22]. أما لعبة النّرد فكانت من الألعاب المستهجنة التي يلعبها سكان الأحياء الفقيرة في قاعات خاصة كما في أرباض فاس[23]، أو الأسرى[24]. وهناك لعب أخرى، لا يمارسها إلا "رعاع القوم". وفي ما يتعلق بتسلية العامة وهؤلاء "الرعاع" فيمْكن التمييز فيها بين "تسلية منفعة" و"تسلية ترفيه".

---

20 - مثل "سذاب" المعروف بالروطة. راجع: الغساني، م. س.، ص. 262، وهنا وهناك.

21 - الوزان: م. س.، 1: 187 و 202.

22 - م. ن.، 1: 202. وقد تكون هذه اللعبة قد أصبحت أيضا لعبة شعبية بعيد عصر الوزان، إذ لاحظ جون وندوس في أوائل ق. 17م أن المغاربة "يفرجون أحيانا عن أنفسهم بلعبة الضامة أو الشطرنج، لكنهم لا يتعاطون كثيرا للعب." جون وندوس، رحلة إلى مكناس. ترجمة: زهراء إخوان، تقديم وتعليق: عبد اللطيف الشاذلي، منشورات جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، د. ت.، ص. 51.

23 - الوزان: م. س.، 1: 215. والراجح أن هذه الأرباض كانت تمارس فيها حتى الألعاب الممنوعة كاللعب بالنقود، ذلك لأنه كان "يمنع... أي لعب بالنقود مشتبه فيه. والذين يقترفون ذلك يعاقبون بالجلد أو الغرامة أو السجن." حسب ج. وندوس: م. س.، ص. 51.

24 - جرمان مويط، رحلة الأسير مويط. ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات العلوية بالريصاني، وزارة الثقافة، دار المناهل، 1990، ص. 41.

ونقصد بتسلية المنفعة ممارسة أناس كثيرين هوايات بدافع الحاجة، كممارسة الصيد أو القطف من أجل القوت، حتى غدا ذلك نوعا من أنماط عيشهم، كأهل المناطق شبه الجافة والجافة الفقيرة، مثل سكان أقّا[25] وتبلبلت[26] وغيرهم ممن كان الصيد بالنسبة لهم ضرورة أكثر منه هواية وتسلية، حتى إن أبا القاسم بن محمد بن عبد الجبار الفجيجي (ت. 1579/986)[27] قال فيه:

يلومونني في الّصيد والصيد جامع   لأشياء للإنسان فيها منافع

و لم يكن الصيد يقتصر فقط على ما يُقتات به، بل كان يشمل كذلك حيوانات ضارية كالأسود التي كان يُعهد إلى رجال من جبل زرهون باقتناصها ونقلها إلى حلبة بالقصبة السلطانية بفاس لتتصارع مع ثيران ورجال بحضور الملك والحاشية[28].

ويظهر أن الحاجة إلى الصيد والصراعات القبلية كل ذلك ساهم بدوْر ما في الاهتمام أكثر بالرماية بواسطة النار، لاسيما مع انتشار البنادق والمدافع، بينما كان الأمر قبل ذلك يعتمد طرقا بدائية برمي الحجر باليد[29] أو ما شابه ذلك. وذكر أبو سالم العياشي (ت. 1679/1090) في هذا الصدد أنه لّما كان مع الحُجّاج على بعد مراحل من فيجيج، في قرية تدعى بوصمْغون، والوقت وقت عيد، "خرج المبشرون صبيحة يوم العيد قبل طلوع الشمس وبقينا بعدهم إلى أن

---

[25] - الوزان: م. س. ، 2: 117-118.

[26] - م. ن.، 2: 129.

[27] - الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد. تحقيق: عبد الهادي التازي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1983، ص. 53. ومحمد ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالغرب من مشايخ القرن العاشر. تحقيق: محمد حجي، ط. 2، الرباط 1977، ص. 132.

[28] - الوزان: م. س.، 1: 227.

[29] - ما يزال الشبان في قبائل الشمال الغربي المغربي يتنافسون بلعب ما يُعرف بـ"الرَّنانيَة"، وتقوم هذه اللعبة على نصْب مجموعة من الأحجار بعدد المتنافسين، ويصطف المتنافسون على بعد مسافة معينة منها، ويحاول كل واحد منهم إسقاط نصبه قبل الآخرين بواسطة أحجار (كرْط). والراجح أن اسم "الرنانية " مشتق من الرنين الذي يُحدثه الحجر بفضل السرعة عند التسديد والرمي.

صلّينا مع أهل البلد وكان من عادهم أنهم يخرجون إلى المصلى بسلاحهم لا يخرج أحد بغير سلاح صغيرا كان أو كبيرا ويبنون في المصلى أحجارا يتخذونها غرضا للرمي بالبنادق فلا يذكر الله في المصلى إلا أناس قليلون وغالب الناس مشتغلون بالرمي حتى في حال الصلاة والخطبة."[30] ومعلوم أن الصيد بإطلاق النار كان من المستحدثات التي أثيرت بقوة في كتب النوازل[31]. هذا وغني عن القول إن انتشار هواية الرماية والتسديد بالبنادق هو الذي ساهم في انتشار "الحرْكة" (التّْبوريدة) أو اللعب بالمكاحل والبارود بين القبائل والجيش في الأعياد وأيام النصر[32].

ويعتبر "الحْلايْقية"، بمختلف أصنافهم، الذين يعيشون من تسلية الناس في الساحات العمومية بالمدن أو في الأسواق الأسبوعية ومواسم الصالحين بالبوادي، ضمن هذه الفئة من الفقراء الذين تُعتبر التسلية بالنسبة لهم تسلية منفعة قبل كل شيء[33].

أما النوع الثاني، أي التسلية من أجل الترفيه، فأبْسطُه البحث عن مجال لقضاء فسحة من الوقت بالتفرّج على الآخرين وملاحظة ما يجري بينهم. ففي سوق بفاس خاص ببيع خيط الكتان، مثلا، كان يكفي الذي يريد "قتْل" الوقت أن يحجز لنفسه مكانا تحت شجرة توت، بهذا السوق

---

[30] - أبو سالم عبد الله العيّاشي، الرحلة العيّاشية (ماء الموائد). جزآن، طبعة الأوفسيط، نشر: محمد حجي، الرباط 1977، 2: 419.

[31] - راجع: السكتاني، م. س.، ص. 44 وما بعدها.

[32] - نشر، م. س.، 3: 406، و4: 170. ويظهر أن "الحرْكة" في الأصل كان يُستعمل فيها الرماح قبل البنادق والبارود، حسب ما يفهم من مشهد استعراضي قامت به فرقة من المغاربة أمام البعثة الإنجليزية التي زارت المغرب عام 1721م بحضور جون وندوس الذي هذا المشهد قائلا: "وقد أظهر هؤلاء الرجال مدى مهارتهم في تسديد رماحهم مهاجمين مرات عديدة، كما كانوا أحيانا يقذفون برماحهم في الهواء ثم يلتقطونها مرة ثانية وجيادهم تركض بسرعة كبيرة." (م. س.، ص.35.) وتحدث كذلك عن "فرق الفرسان التي كانت تهمز مجتمعة خيولها وتسدد بنادقها وتطلق النار وكأنها تهاجم عدوّا. وبعد ذلك يشرعون رماحهم ويختار الواحد منهم زميلا له لمبارزته. وبحذق كبير يصولون بهجمة بالرمح في الوقت الذي تجري فيه جيادهم بسرعة قصوى، وخلال مدة الركض يواصل المشاة إطلاق النار بدون انتظام، يشحن كل رجل بندقيته ويطلق النار اتجاه الأرض بسرعة كبيرة." م. ن.، ص. 34.

[33] - حول "الحلايقية"، راجع: محمد استيتو، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16 و17م. ط. 1، مؤسسة النخلة للكتاب، وجدة 2004، صص. 232-234.

بين الظهر والعصر، على عادة كثيرين، ويراقب تخاصم النساء الذي يتحوّل إلى سباب ومن ثم إلى عراك وقذْف بأشنع ما يمكن من الشتائم فيُضحكن الحاضرين(34).

ويظهر أن النصف الأول من القرن 17/11 شهد بداية تفشي ممارسة أنواع جديدة من اللعب، كلعب الورق الذي يُرجَّح أن يكون انتقل إلى المغرب على يد العلوج(35). وظهر التردُّد على فضاءات جديدة لقضاء بعض الوقت مع رفقاء كالمقاهي الأولى التي ظهرت بالرباط على يد أندلسيين(36)، والتي نعتقد أن العامة والفقراء كانوا فيها عَملَة وزُبناء أيضا.

وكان السمر في الأجواء الصحوة بعد عناء النهار يُعتبر عادة لتبادل الأخبار والأفكار والمعلومات، في البوادي خاصة، حيث كان للقرويين أماكن مخصصة لاجتماعهم وسط قُراهم يتناقشون فيها أحوالهم. وقد ذكر الولاّلي(37) (ت. 1717/1128) في حديثه عن إحدى هـــذه القرى، أنه كان لأهلها "مكان مفروش بالحجارة من أصله يجلسون فيه ويتأنسون بالاجتماع به، ويتذاكرون أمور دنياهم فيه [...] وكان هذا النادي يُسمونه ((إسل)) وهو بلغتـــهم الحجـــر

34 - الوزان: م. ن.، 1: 188، وكربخال مارمول، إفريقيا. 3 أجزاء، ترجمة: محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1984-1989، 2: 152.

35 - J. CAILLE; *La petite histoire du Maroc*. Casablanca, p. 122.

36 - R. COINDREAU; *Les Corsaires de Salé*. Paris 1948.

يذكر ج. مويط (م. س.، ص.41.) أنه على إثر وباء 1679م أنشأ الأسرى بمكناس جمعية لإسعاف مرضاهم كانت تموّل من بيـــع الخمـــور للمسلمين ومن إحداث طاولة للعبة النرد وأخرى للعب الورق أثناء الليل. ويرى إبراهيم حركات (السياسة والمجتمع في العصر السعدي. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1987، ص. 266.) أن الأسبقية في ظهور لعب الورق بالمغرب ربما كانت للأتراك. ومعلوم أن المقاهي تكاثرت بعد ذلك بمختلف المدن المغربية، لاسيما في ق. 19م، وتعددت وظائف العديد منها بين بيع السكر إلى بيع الخمور والدخان ولعـــب القمـــار واتخاذها أوكارا للبغاء... راجع لطفي بوشنتوف، " تجارة المحظور في النصف الثاني من القرن 19م (سلعتا الدخان والخمر مثالا)". ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، ج.1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بعين الشق، الدار البيضاء، مطبعة فضالة، المحمدية 1992، ص. 128 وما بعدها.

37 - أحمد بن محمد الولاّلي، مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار. دراسة وتحقيق: عبد العزيز بوعصّاب، منشورات كلية الآداب بالربـــاط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1999، ص. 234.

الأملس المنْبطح المستوي ظاهره بالأرض، فسَمّوا المكان باسم ما حل فيه." ويمكن القول إن هذا النادي يقوم بالدور نفسه للدكانات العامة بالقصور والدكانات الخاصة بقرى الريف الغربي المغربي[38].

إلا أن جلسات السمر لم تكن تخصص لمناقشة أمور الدنيا فقط، بل كان يغلب عليها، أحيانا، كلام البسط والفحش[39]. أما في بعض المجالس فكان السُّمّار يقضون أوقات سمَرهم بمرافقة عازف على آلة طرب، يؤنس وحشتهم ويذكّرهم بتراث بلدانهم ويُحيي فيهم لوعة الشوق إلى الأهل والأحباب والخلاّن، لاسيما إن كانوا بعيدين عن أوطانهم كأولئك الغرباء الذين كانوا يقيمون بعدد من فنادق فاس، كالفندق الذي كان يقيم فيه الملامتي سيدي عبد المجيد البادسي (ت. 1003/1594-95)، والذي كان به "ليلة جماعة فيهم رجُل بيده آلة طرب ينْقُر أوتارها، فحرّك منه [البادسي] الوجْد فجعَل يقول له: گـنْبر گنْبر گنبَر..."[40] لهذا لا نستغرب إذا كان أكثر شعراء الملحون والزجّالين الذين ساهموا في انتشار الزّجل بين مختلف المدن في ذلك العصر هم من الغرباء ولاسيما من تافيلالت[41]. ومعلوم أيضا أن أكثر الناس ولوعا بالملحون والزجل هم من الصناع والحرفيين البسطاء.

---

38 - تنتشر الدكّانات في المجتمع الواحي في الدروب والأزقة العامة على جانبَي أبواب المنازل، يجلس عليها الناس عادة للوقاية من حر الشمس وللاستراحة ولتجاذب أطراف الحديث، واعتبرناها عامة لأنها تستغل من قبل العموم. أما في الدواوير بالشمال فاعتبرناها خاصة لأنها لا تُستغل عادة إلا من أصحابها وإذا قدم عليهم أحد، وذلك بسبب بعد المسافة النسبي بين الدُّور.

39 - ورد مثلا أن أبا الحسن بن حرزهم "لّما حُمل... إلى السجن بفاس، تواصى سُمّار السجن أن يكفّوا عما كانوا يتكلمون به من الفحشاء..." ابن عيشون: م. س.، ص. 67.

40 - المصدر نفسه، ص. 283.

41 - أحمد بوزيد الـكَنساني، تاريخ الزجل الشعبي بتارودانت: الملحون. منشورات عكاظ، الرباط 1993، ص. 12. وقد أرجع المؤلف في مقدمة كتابه ظهور الزجل وانتشاره الواسع في المجتمع إلى الواردين على البلاد من القبائل العربية وغيرها.

وفي الواقع فإن الموسيقى تعتبر من بين أهم وسائل التسلية. وتتعدد الطبوع الموسيقية في المغرب بتعدد الأعراق واللهجات وأنماط العيش والحرف[42]. وكانت الموسيقى المحلية في الأوساط الشعبية من الفنون المكتسبة بالفطرة والارتجال أحيانا، والتي تُحدث نوعا من التوازن النفسي في حياة البسطاء، فيرفّهون بها عن أنفسهم في أوقات فراغهم، ويهيّئون مناخا اجتماعيا يُنسيهم هموم البيئة وشظف العيش[43]. وكانت الفرق الموسيقية التابعة للمخزن، التي يُنفق عليها السكان، تُستعمل في المناسبات المختلفة[44]، واشتهرت بعض الأسَر بإحياء الحفلات، كأسْرة أحد أولاد نصيح، الذي كانت له "أخت تطبّل مع الفراحات للأعراس، وأخرى... تزوّجها بنّاني الدّلاّل، وهي أم ولده محمد العوّاد المشهور الذي كان يبيت في الأعراس والمواسم يُعوِّد..."[45]

وكانت الموسيقى السودانية قد استطاعت، منذ عصور، أن تجد موطئ قدم لها ضمن النسيج الموسيقي بالمغرب بفضل العبيد الذين لم يكن قد بقي لهم ما يربطهم بأصولهم إلا تراثهم الموسيقي الذي حرصوا على المحافظة عليه ونقله إلى أبنائهم بإحيائه بمناسبة وبدُونها. فقد نقل ابن غازي المكناسي [46] (ت. 1513/919) أنه كان لأحد الأعيان بتاوْرا، في أواخر العصر الموحدي "السودان المسمّون [...] عبيد الحرْمة [...] يلعبون الثقاف بالحديد ويرقصون ونسائهم يضْرِبْن آلة اللعب ويغنّين والزّامِر يُزمِّرعليهم بأبي قرون وكانت هذه [...] من عوائدهم في أفراحهم."

---

[42] - يعتبر الملحون مثلا المفضل عند الحرفيين الشعبيين، بينما يفضل التجار والأندلسيون الموشحات الواردة على المغرب من الأندلس.

[43] - إ. حركات: م. س.، ص. 256.

[44] - مارمول: م. س.، 2: 172.

[45] - نشر، م. س.، 4: 249.

[46] - الروض الهتون، م. س.، ص. 13.

ويكون السمَر على الموسيقى عند البعض مصحوبا بشرب الخمر، كمـــا في الأفـــراح بجهات كثيرة من البلاد كقبائل غمارة التي كان أناس كثيرون فيها مدمنون على شرب الخمر. وكانت هذه العادة متفشية بين بعض النازلين بالفنادق(47)، وفي دُور البغاء بالأحيـــاء الفقـــيرة كأرباض فاس(48).

وكان من عادة بعض المتعاطين لاحتساء الخمر أن يحرص على إعداد جوّ هادئ لذلك، بحيث لا يخلو من رومانسية، كأن تكون الأزهار دائما بقربه(49). أما المنتشون بشرب الخمر من سكان بعض السواحل، كبادس مثلا، فقد كان من عادتهم أن يذهبوا تقريبا كل مساء يكـــون الجو صحوا في زوارق صغيرة للتتره على عرض البحر والتسلي بالشراب والغناء(50).

ومعلوم أن الخمر، كالدخان، كان منتشرا بين العامة والفقراء منهم خاصة، وحتى بين الفقهاء والطلبة كما في بني مزكَلدة حيث عُرف عن طلبة هذه القبيلة أنهم كانوا "يعقرون الخمر سرا وينهوْن الناس عن شربها لأنها حرام فلا يثق بهم أحد."(51) وقد كان فقهـــاء شفـــشاون مدمنون على شرب خمر يُعرف بـــ"رُبّ الفقيه اعْمر"(52).

وانتشرت عادة شرب الدخان كانتشار النار في الهشيم بعد وصول الوفد الـــسوداني الذي أهدى الفيل إلى السلطان المنصور السعدي عام 1007/1598-99(53). كما انتشر استعمال

47 – راجع ترجمة البادسي في: صفوة، م. س.، ص. 32. وانظر أيضا مارمول: م. س.، 2: 147-148.

48 – الوزان: م. س.، 1: 215.

49 – م. ن.، 1: 184.

50 – م. ن.، 1: 254.

51 – م. ن.، 1: 264.

52 – نشر، م. س.، 3: 235. وكان الناس بقبيلة بني مزكلدة يصنعون مثل هذا الرُّب من العنب إلى عهد الحماية، إلا أنه لم يكـــن مـــسكرا كالخمر. رواية شفوية للسيد مَحمد اليوسفي، المزداد في الأربعينيات من ق. 20م، بقبيلة بني مزكلدة.

53 – م. ن.، 1: 72-73. وأحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. 9 أجزاء، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954-1956، 5: 126. وقال السكتاني بشأن ظهورعشبة التبغ بدرعة: "وذالك أني كنت بدرعة أول ما

الحشيش من نبْتة شهدانج المعروفة بالقنّب، "ويُسمى ورقُها المأكول للإسكار -عند العامة- بالحشيش، وقد عمّت البلوى في هذا الزمان الكثير الفواحش بكثرة أكله والاشتغال به عند الرجال والنسوان والشبان والصبيان، وفحش ذلك فيهم واتّبعوا أهواءهم إلا من عصمه الله."(54)

وقد شاع شرب الدخان والحشيش، في العصر الحديث، بين فئات اجتماعية واسعة بما في ذلك العلماء والفقهاء(55) والأولياء والمجاذيب(56). وقد عُرف الحشيش أو "الكيف" قبل القرن 16/10 وكان منتشرا بإفريقية(57). وتعاطى الناس الأفيون هناك خلال ذلك القرن، ويرجح أن يكون انتقل منها إلى المغرب. أما الغليون البلدي (السّبْسي) فيبدو أن أصله من تركيا وهو الذي كان يُستعمل لتدخين التبغ أو الحشيش(58). كما شاع بكثرة أيضا استعمال الغبار "طابَقُو" أو طابة في المناخر حتى "عمّ البلاء بها في المغرب وغيره ويتعاطاها الأرذال وغيرهم، ويزعمون أن فيها دواء لقطع البلغم وغيره."(59)

ظهرت هذه العشبة وأنا حديث السن في أوائل الاشتغال بالطلب فبينما نحن ذات ليلة والطلبة مجتمعة في ليلة خميس كما هو شأنهم في ليالي تعطيل القراءة فأتى بعضهم بهذا الدخان فتناولوه فيما بينهم إلى أن جاءت إلي فتناولتها وأخذت منها نفسا أو نفسيْن..." الرحلة العياشية، م. س.، 2: 402.

54 - الغساني، م. س.، مادة "شهدانج"، صص. 336-337.

55 - وحدثت مساجلات كثيرة بين شاربي الدخان من الفقهاء والعلماء والقائلين بحليتها، وبين القائلين بتحريمها. راجع محمد حجي، الحركة بالمغرب في عهد السعديين. ج. 1، الرباط، 1976، صص. 246-266.

56 - راجع مثلا ترجمة عزيزي القنيت، وبابا إدريس الزّغْري (ت. 1874/1291)، سلوة، م. س.، 1: 373، و3: 11.

57 - ذكر عبد الواحد ابن الطواح أن جماعة من خصومه كانوا قد "تشيعوا في النبات المعروف بالحشيش الذي يتعاطاه أهل الفسوق..." سبك المقال لفك العقال. تحقيق ودراسة: محمد مسعود جبران، ط. 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995، ص. 207.

58 - إبراهيم حركات، م. س.، ص. 265.

59 - عيسى بن علي الحسني العلمي، كتاب النوازل (نوازل العلمي). 3 أجزاء، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، منشورات وزارة الأوقاف، مطبعة فضالة، المحمدية 1983، 3: 208 وفهرس الموضوعات، ص. 308. راجع أيضا ترجمة المهدي العراقي (ت. 1842/1258) في: سلوة، م. س.،2: 358-359.

ونظرا لتحريم الخمر ولَمّا كان ينجرّ أحيانا عن تعاطي شرب الدخان والحشيش مع الموسيقى من فحشاء ومنكرات بين العامة والفقراء، لذا فقد سعى عدد من الفقهاء والمحتسبين إلى محاربة هذه الظواهر، فاشتهر عبد الله الهبطي (ت. 1556/963) بمحاربة عادة شرب الخمر بجبال غمارة[60]، واشتهر المحتسب الحاج صالح (ت. 1649/1059) بقطع عادة شرب الدخان بفاس وبيع آلة الموسيقى للنساء[61].

وكانت النزهات كذلك من العادات لقضاء أوقات الفراغ بالنسبة لمختلف الشرائح، لاسيما في الفترة ما بين أبريل ونهاية شتنبر حيث يخرج الناس إلى البساتين[62] أو إلى ضفاف بعض المجاري كوادي ويسْلَن قرب فاس، الذي كان متنزّها للغرباء من الطلبة وغيرهم أيام الخميس بصفة خاصة[63].

وكان من عادة بعض سكان المناطق الساحلية من قديم أن ينصِّبوا لأنفسهم أو لأسَرهم، زمان الصيف، خيمات على شاطئ البحر للإقامة فيها والمبيت[64]. إلا أننا نعتقد أن

[60] – راجع: ابن عرضون، م. س.، صص. 127–129، وهنا وهناك.

[61] – صفوة، م. س.، صص. 82–83. ونشر، م. س.، 1: 376. وبالنسبة لبعض أهل السماع والطرق، ورد أن عبد الله بن أحمد معن (ت. 1188/1774–75) "كان له ولوع بالسماع ويتواجد منه ويكره الآلات ولا يقبل سماعها بحال إلا ما كان من ذوات الجلود من وجه واحد." سلوة، م. س.، 2: 356–357.

[62] – الوزان: م. س.، 1: 194، ومارمول: م. س.، 2: 160.

[63] – أمثال محمد بن الحسن ابن عرضون الذي أنشد مرة رفيقه أحمد بن محمد الشفشاوني، يذكره بتلك النزهات، حين غفل عنه، قصيدة مطلعها:

إذا القلب مني دهاه شجن — وأحضان عيني جفاها الوشن

وجمر الغضا في الحشا قد أضا — حثثت المطي إلى ويسلن

إلى أن يقول:

وهذا الخميس ألا نزهة — ببطائحه يا سليل الحسن

راجع: أحمد ابن القاضي، درة الحجّال في أسماء الرجال. 3 أجزاء، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة 1970، 1: 101–102، وصفوة، م. س.، ص. 136. ونشر، م. س.، 1: 34.

[64] – يوسف ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف. تحقيق: أحمد التوفيق، الرباط 1984، ص. 234.

هذه الظاهرة تراجعت بشكل كبير في القرنين 10 و16/11 و17 بسبب الاحتلال الإيبري لمعظم السواحل ولحالات الفوضى وانعدام الأمن في البلاد في كثير من فترات ذلك العصر.

وتُعتبر العناية بالهيئة والمنظر شكلا من أشكال التسلية عند العامة والفقـــراء، بـــبعض البوادي خاصة، لاسيما في شهر رمضان، كما في قرية تســـگدلت التي كان من العوائد المتمكنة من عامة أهلها أنهم "يصنعون الحناء برؤوسهم من قُرب الغروب، يرون أنه لا يصل إلى محـــل الإفطار حتى يدخل وقت الإفطار. ومنها أنهم كانوا يصبغون الشعر الأســـود بـــالحُمرة [...] فكان الرَّجل منهم يجعل وفْرته في إناء الصبغة، مُستلقيا على قفاه ويبقى كذلك نهارا لا يصلي لتتعلق به تلك الصبغة، وتسمى بلغتهم صبغة اللدّ..."[65]

3- التّسلية عند الأطفال والشبان

يبدأ الصّبيان والصغار في التعرُّف على المحيط الخارجي من خلال لعبهم أمام أبـــواب سُكناهم[66] في الأزقة، وغالبا في جماعات من عدة أفراد حتى إنهم يتسبّبون أحيانا في مـــضايقة المارّة[67]. ويعتبر استعمال الصبي لقضيب أو قصبة للركوب وإرْدافه آخر أو أكثر معه عليها[68]،

---

65 - الولالي: م. س.، ص. 239، و249. وورد في مصادر العصر الوسيط أن السوسيين "لهم بشعورهم اهتمام يغسلونها بالحناء في كل جمعة برقيق البيض والطين الأندلسي." محمد بن عبد الله الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنـــان، بـــيروت 1975، ص. 330.

66 - ورد أن رضوان الجنوي قصده أهل فاس للاستمطار به فامتنع وقال لهم: "عليكم بسادتنا الشرفاء الطالبيين، فوُجد صبي من أبناء الشرفاء يلعب بالباب، فقبضه وحمله إليه وسار معهم إلى المصلى." ابن عيشون: م. س.، ص. 173.

67 - نقلَ عن أبي الحسن بن حرزهم قوله: "كنت مارا في بعض الطرق وصبيان يلعبون، فضرب صبي منهم رجْلي، فعظُم علي، فصِحْت عليه وأغلظْت له في القول..." م. ن.، صص. 63-64.

68 - يفهم ذلك من حكاية الصنهاجي الدوار الذي أردف رجُلا وراءه على قصبة كانت بيده. م. ن.، ص. 74.

تقليدا لامتطاء الكبار الدواب، أبسط أداة متاحة لتسليتهم لبعض الوقت، تعوّضهم عن اللعب المصنوعة المعروضة للبيع كالفرافر وغيرها.

وكان الأطفال يستغلون أحيانا مرور أحد المتسكعين من المعتوهين والبلهاء بهم فيقومون بملاحقته ساخرين من هيئته ومنظره، كما كانوا يفعلون مع البهلول العربي ابن عيشون (ت. 1141/1728) الذي "كان كثّ اللحية موفرها من غير تحسين ومن عادته أن يلبس الحائك المعروف بابن شكرة من غير قلنسوة ولا نعل ويداه دائما تحت شمْلته العليا والصبيان يجذبونه من حائكه وهو يدعو عليهم بقوله: الناموس العسْري، وإذا بالغوا عليه يقول لهم: سيروا الله يسلّط عليكم البْرَانيَة [الباذنجان] بالخلّ والسمن."[69]

ويبدأ الطفل في سن البلوغ والشباب في ممارسة بعض الهوايات الواسعة الانتشار بين أترابه كوُلوع ابن أبي محلي (ت. 1022/1613) بصيد العصافير مثل أقرانه[70]. وكانت تربية الحمَام بفاس من بين أوسع هذه الهوايات شيوعا بين العديد من الشبان وغيرهم، حيث يجدون في العناية بهذا الطائر متعة كبيرة، فيقتنون منه أعدادا كثيرة جميلة الشكل مختلفة الألوان تُربّى في أقفاص فوق السطوح، ويَفتح هؤلاء الهواة الأقفاص مرة في الصباح ومرة في المساء ليستمتعوا بمنظر حمَامهم وهو يحلّق في السماء، والذي يستمر طيرانُه مدة أطول تكون قيمته عندهم أكبر. وقد يختلط حمَام قفص مع حمام قفص آخر فيؤدي ذلك أحيانا كثيرة إلى خصام، بل وإلى عراك بالأيدي بين مُربِّيه. ويقوم البعض، على السطوح، بتثبيت شرك صغير في رأس عصا طويلة تُمسك باليد فيتصدى لكل ما مرّ به من حمَام[71].

---

69 - سلوة، م. س.، 3: 308.

70 - أحمد بن أبي محلي، إصليت الخرّيت بقطع بلعوم العفريت النفريت. مخ.، خ. ع.، عدد د 100، ص. 59. وعبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي ورحلته الإصليت الخريت. منشورات عكاظ، الرباط 1991، ص. 39.

71 - الوزان: م. س.، 1: 202.

وكانت "لُعبة الكرة" من الألعاب التي تُمارس في عدة جهات بالمغرب، على ما يبدو، إلا أن ما يكون قد كُتب عنها لا يزال غير معروف بما فيه الكفاية أو مفقودا، مثل "رسالة على الكرة" لأحمد ابن البنّاء الأزدي المُرّاكشي[72] (ت 1321/721)، لذلك فإن معلوماتنا، عن طبيعة هذه اللعبة وقوانينها وأدواتها، قليلة جدا، في المصادر المغربية المكتوبة عامّة، منها إشارة ابن أبي مَحلي إلى ولوعه بلعب الكرة مع أقرانه في صغره[73]، ومنها ما ورد على لسان أحد الفقراء المريدين، بمناسبة تهنئة ابن أبي محلي على انتزاعه مراكش من السعديين، حيث قال، مُشبِّها الصراعات السياسية والعسكرية بلعبة الكرة: "إن الكرة التي يلعب بها الصبيان يتبعها المائتان وأكثر من خلْفها، وينكسر الناس وينجرحون وقد يموتون، ويكثر الصّياح والهول، فإذا فتّشتَ لم تجد إلا شَراويط ملفوفة فيها، أي خِرق بالية ملفوفة."[74]

ونرجّح أن هذه اللعبة هي المعروفة أيضا في الشمال الغربي المغربي بـ"شُرَّة"، وتُعمل فعلا من خِرق بالية ملفوفة أو من "وَظْفة" دوم محشُوة تِبْنا، وتُدحْرَج بعِصِيّ وتُقذف أيضا بالأرجل، وتقع فيها فعلا، أحيانا، حوادث مؤسفة كما جاء في مسألة "جماعة من الناس كانوا يلعبون الكورة (كذا) فصادفت عين أحدهم فعميت، فعينتها الجماعة المذكورة في أحدهم وقالوا إنه ضرب الكورة حين صادفت عينه."[75] ومما يدعم لعِبها بعصي، قول الشيخ أحمد بن موسى

72 - جذوة، م. س.، 1: 151.

73 - إصليت، م. س.، ص. 59. وع. القدوري: ابن أبي محلي...، م. س.، صص. 53-54.

74 - نشر، م. س.، 1: 189، والاستقصا، م. س.، 6: 31.

75 - نوازل العلمي، م. س.، 3: 111. وكان أحد الرعاة عند جدي -رحمه الله- قد فقد إحدى عينيه أثناء ممارسته هذه اللعبة مع أقرانه.

(ت. 1564/971): "كُنا [معشر الأحداث] نلعب ذات يوم الكرة [...] فسقطت العصا من يدي..."[76]

إلا أن أخطر "الألعاب" ممارسة، لاعتمادها على القوة البدنية والعنف، هي لعبة "التراشُق بالحجَر" التي كانت مشهورة ببعض المدن كفاس. وتمارس هذه اللعبة في أوقات معيّنة من السنة، وتبدأ بتجمُّع الشبان فيحْمل أهل زقاق منهم العصي ليحاربوا أهل زقاق آخر، وقد يشتد الخصام بينهم فيشهرون السلاح ضد بعضهم، وقد يموت عدد من كل فئة، لاسيما أيام الأعياد حيث يجتمع الشبان في ظاهر المدينة. وبعد انتهاء الاشتباك يأخذون في التراشق بالحجارة حتى إن المكلف بالأمن قد يعجز عن تفريقهم والفصل بينهم، إلا أنه ينجح في القبض على بعضهم ويودعهم السجن، ثم يُجلدون ويُطوّفون في المدينة. ويخرج في الليل، إلى ظاهر المدينة، كثير من المتنطِّعين مجتمعين مسلَّحين، فيتجولون في البساتين (الجنانات) والحقول، وإذا التقوا متنطعين من زقاق آخر معاد، وقع شجار عنيف بين الجانبين، لأنهم يكنون لبعضهم العداوة والبغضاء، وكثيرا ما يتعرضون لعقوبات صارمة[77].

وقد ورد تأكيد لهذا النوع من اللعب، أو بالأحرى المواجهات الدامية، ضمن حوادث عام 1140/1727-28 بكتاب نشر المثاني[78]، وذلك بمناسبة الحديث عن "وقعة الخميس بين المدينتيْن فاس الإدريسية وفاس العليا، وسبب ذلك اللعب بضرب الحجر بين الأحداث من كل المدينتين بموضع يُعرف بسوق السمن، عند باب السبع، يباع فيه يوم الخميس، فنشب الحرب

[76] - أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة. إعداد: محمد بن عبد الله الروداني، تحقيق: اليزيد الراضي، مطبوعات السنتيسي، الدار البيضاء 1999، ص. 189. أما في انجلترا فقد كانت الكرة تلعب بالقدم، كما يُفهم من قول جون وندوس، بشأن الصنّاع والحرفيين في المغرب، عندما يسمعون الأذان، يتركون مشاغلهم وأدواتهم "ثمّ يُسرع الجميع كلاعبي كرة القدم إلى المسجد." م. س.، ص. 52. غير أننا لا نعرف ما إذا كانت لعبة "كرة القدم" التي أشار إليها وندوس معروفة بالمواصفات نفسها في أنجلترا والمغرب معا في ذلك العصر.

[77] - الوزان: م. س.، 1: 202.

[78] - م. س.، 3: 296. وقد تدخلت في هذه المعركة حتى السلطة وأوداية مكناس وقبيلة بني حسن بالسايس. المكان نفسه.

بين المدينتين، وكان كثير ممّن بفاس الإدريسية خرج لسوق الخميس على العادة بأحسن لباسه، وكان ثالث يوم المولد، الخامس عشر من ربيع النبوي، فكسر السوق الأوداية ونهبوه، وسلبوا الناس من الثياب وضربوا الرقاب، وقبضوا جميع من خرج للسوق من فاس الإدريسية وسجن بفاس الجديد، إلا من وجد مخرجا للفرار فنجا..."

كانت هذه إذن بعض أنواع التسلية التي عُرفت بين النساء والرجال وبين الكبار والصغار والشبان في المغرب خلال العصر الحديث، وهي، كما يلاحظ، منها ما هو بدائي وبسيط، ومنها ما هو معقد وشائك، ومنها ما هو عنيف[79]، ومنها ما يحتاج إلى وسائل، ومنها ما لا يحتاج إلى أكثر من اللسان.

[79] - تحدث وندوس أيضا عن بعض الألعاب يمارسها الرجال "يضربون بعضهم بعنف." م. س.، ص. 37.